الفصل الأول

مناهج البحث

1 - ما المنهج: يقدم المعجم الفلسفي تعريفاً للمنهج بأنه : " وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة "[1] . ويعرف " بنل " المنهج بصفة عامة على " أنه الترتيب الصائب للعمليات العقلية التي نقوم بها بصدد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها "[2] .

أما المنهج العلمي Scientific Method فيمكن تعريفه بأنه : " تحليل منسق وتنظيم للمبادئ والعمليات العقلية والتجريبية التي توجه بالضرورة البحث العلمي، أو ما تؤلفه بنية العلوم الخاصة " . والمنهج العلمي بهذا المعنى يستخدم أداة منهجية غاية في الأهمية وهي التحليل، لمجموعة المبادئ والأسس التي ينطلق منها أي بحث علمي، على أن يتسم هذا التحليل بصفات منطقية مثل الإتساق والضرورة، والتحليل لا يتوقف عند الإلمام بهذه المبادئ ولكنه يبحث من بينها عن الأكثر بساطة وضرورة ويحذف المتكرر أو المشتق من غيره من المبادئ . كما يمتد التحليل إلى مجموعة العمليات العقلية والتجريبية، فنحن نجري مجموعة من عمليات الإستنباط والاستدلال المنطقي والرياضي على ما توفر لدينا من معطيات، ونعود في إجراء ذلك إلى مجموعة من قواعد الاشتقاق ذات الطابع المنطقي الرياضي (العقلي)، ونحتكم بالإضافة إلى ذلك، إلى التجريب عند الحكم على مجموعة من النتائج المشتقة بالصدق أو الكذب بمدى مطابقتها للواقع (التجريبي). والمنهج العلمي يمكن أن يأخذ طابع العمومية عندما يشير إلى مجموعة من القواعد العامة التي تعمل طبقاً لها كل العلوم، ويمكن أن توجد مناهج نوعية تتعدد باختلاف العلوم والبناء المنطقي لكل علم[3] . وفي كل الحالات فإننا نهدف إلى تحصيل للمعرفة العلمية رصيد العلم الحقيقي .

---

[1] - مجمع اللغة العربية : **المعجم الفلسفي**، مادة : منهج، ص: 195 .

[2] - قاسم، د.محمد محمد : **المدخل إلى المنهج البحث العلمي**، ص:52، عزاه إلى :
Bittle,C.N.Logic, the Science of Correct thinking, P.270 .

3 - قاسم، د.محمد محمد : م.س، ص.ص: 53، 54، بتصرف

ويشـير اسـتخدام المـنهج العلمـي – بصفة عامة – إلى عمليتين رئيسيتين، هما الاسـتقراء، والاسـتنباط، أو التحليل والتركيب، حيث يمكن النظر إلى الاستقراء على أنه تحلـيل ينـتقل مـن المشخص إلى المجرد، من الظواهر إلى القانون العام، ومن الحالات التطبيقـية لمـبدأ إلى المبدأ ذاته، كما ينظر إلى الاستنباط على إنه انتقال من البسيط إلى المركـب، مـن المبدأ إلى تطبيقات المبدأ، من الضروري إلى العرضي، من القانون العام إلـى الحـالات الفردية التي تندرج تحته . نمثل بصفة مؤقتة لاستخدام المنهج الاستقرائي بـالعلوم التجريبـية، ونمثل لاستخدام المنهج الاستنباطي بالرياضيات التي تبدأ طبقاً لفكرة التركيب – بأفكار أساسية قليلة وبديهيات، ثم تشيد بالتدريج علماً أكثر تركيباً دون استعانة بملاحظة أو تجربة . كما يمكن القول بأن النسق الاستنباطي يتلاءم والكتب المدرسية بينما المعمـل هو المكان الطبيعي للعمليات الاستقرائية[1] . وغني عن البيان أن العلوم الطبيعية لا تعـرف هـذا الفصل بين ما هو استقرائي واستنباطي، وإنما أوردناه على سبيل الشرح والتفسير، وخاصة أن هذا الكتاب مؤلف للطلاب في المرحلة الجامعية الأولى . والأحرى أن العلـوم الطبيعـية، بـل وأغلـب العلـوم، تستخدم المنهج العلمي بشقيه الاستنباطي والاستقرائي، التحليلي والتركيبي معاً عند دراسة أي ظاهرة .

كان هذا وصفاً عاماً للمنهج العلمي وأما فوائده فتتمثل في أنه " يمنح السيطرة على الطبـيعة، كما يمنح القدرة على التكيف معها وبما يلائمها، وأن نجاحنا في هذين الأمرين هـو مـا أسبغ على العلم مكانته " فلم يعد العلم أو المعرفة العلمية نوعاً من التأمل الحالم يقـوم بـه العالم نحو الطبيعة، بل أصبح العالم نوعاً من السيطرة بالغة القوة بقصد تغيير البيئة إلى الأفضل، إنه انتقال من التأمل إلى التحكم، لكن نعود فنسأل : هل تستخدم العلوم جميعاً منهجاً واحداً، أم أن هناك مناهج تتعدد بتعدد العلوم ؟ وإن تعددت المناهج، فهل ثمة تمايـز وانفصـال بينها، أم أنه يمكن حدوث تداخل وتعاون بين أكثر من منهج . لنحاول التعرف على المناهج بالتعرف أولاً على " علم المناهج " .

2- علم المناهج : كلمة Methodology أي علم المناهج من وضع الفيلسوف الألماني " كانـت " الـذي قسم المنطق إلى قسمين : قسم يتناول شروط المعرفة الصحيحة، وقسم يحـدد الشـكل العام أو الطريقة التي يتكون بها أي علم . والقسم الثاني هو ما يشكل علم

[1] - قاسم، د. محمد محمد : م.س، ص: 55، عزاه إلى : Bittle C.N., cit., PP. 270-271 .

المـــناهج . ويعنـــي الـــنظر إلـــى علم المناهج على أنه فرع من المنطق أن نطبق مبادئ وعملـــيات المنطق على الموضوعات الخاصة بالعلوم المختلفة . ومن ثم يعد علم المناهج بمثابة الجنس الذي تندرج تحته المناهج النوعية للعلوم الخاصة . ويتم هذا القول إن طبقنا أحد مفاهيم المنطق (التعريف والتصنيف) على علم المناهج نفسه، أما إن نظرنا إلى بيئة العلـــوم الخاصـــة بغـــرض تحديد المنهج الملائم لكل منها، فإننا ندرك حينئذٍ فحوى علم المناهج بصفة عامة .

وعلى أي حال، علينا عند تعيين بنية أي علم أن نضع في الاعتبار النقاط التالية:

- تحديد موضوع كل علم تحديداً نوعياً دقيقاً .
- مجرى هذه العلوم خلال تطورها .
- تحديد نمط القضايا والتعميمات التي يتضمنها كل علم .
- الأسس الفلسفية أو الفروض التي يقوم عليها هذا العلم .
- علاقة هذا العلم ببقية العلوم، مع تحديد تطبيقاته .

والنقطتان الأخيرتان على جانب كبير من الأهمية حيث أنهما يحددان طبيعة المنهج النوعـــي الذي يقدم على استخدامه في علم ما طبقاً لطبيعة افتراضات هذا العلم وأهدافه . ويكشـــف وجـــود اختلافات بين موضوعات العلوم عن سبب اختيار أحد النماذج الرئيسية لمـــناهج العلوم دون نموذج آخر . وإن كانت هذه النماذج لا يعمل الواحد منها بمعزل عن المنهج الآخر بالضرورة، بل قد ينشأ تداخل عند استخدامها ولو بصورة جزئية . ومعنى ذلك أن تعيق وجوه الاختلاف بين مناهج العلوم تبعاً لاختلافها يعد الأمر غير منطقي، ذلك أن وراء هـــذه المناهج كلها وحدة العقل الإنساني . ومثال على ذلك) " أننا لا نستطيع أن نفصـــل بيـــن المـــنهج الرياضي والمنهج التجريبي بالنسبة إلى الرياضيات أو إلى العلوم الطبيعـــية، فكـــل علم من هذه العلوم – أو ينتمي إليها – يلجأ إلى المنهجين معاً في معظم عملـــياته – فالرياضـــة تعـــتمد علـــى المنهج التجريبي إلى جانب اعتمادها على المنهج الرياضي (الاستدلالي) . وأي علم من العلـــوم الطبيعية لابـــد أن يلجأ حالياً إلى المنهج الرياضي في إحدى مراحله على الأقل " .

3 _ أنــواع المــناهج : وتنقسم المناهج إلى أنواع، ويرتبط هذا التقسيم بطبيعة البحث في كــل علم، وأدوات هذا البحث، والغاية التي نتوخاها منه . نعرض هنا لستة مناهج رئيسية من بينها، وهي :

1- المــناهج العقلية : Rational Methods (الفلسفية) : ولا تعني هذه التسمية أن مــا يــندرج تحــتها كــل المناهج العقلية وأن ما عداها من مناهج لا يستخدم العقل، بل المقصود بكونها Rational اعتمادها على إعمال الذهن والارتكان إلى التأمل على تفاوت في الدرجة فيما بينها تستخدم العلوم التأملية هذا النوع من المناهج . وقد قدمت لنا الفلسفة مجموعة من أساليب المنهيجة في إطار ما يسمى " مناهج البحث الفلسفي " هي [1] :

أ- **المــنهج التحلــيل الســقراطي :** ويعتمد على طرح الأسئلة وتصنيف الإجابات ويهدف إلى التوصل إلى الماهيات .

ب- **المــنهج التركيبــي :** قــال به أفلاطون وأرسطو ومفكرون العصور الوسطى، ويتضمن عرضاً برهانياً بالعلاقة العلية بين الفكر والوجود .

ج- **منهج التنسك :** ويعني بممارسة التطهر على المستويين الأخلاقي والذهني، يؤدي إلى استنارة العقل، نادى به أفلاطون وأوغسطين وبعض المتصوفة .

د- **المــنهج النفســي :** ويعنــي بالبحــث في أصول الأفكار، استخدمه " ديكارت " وأتباعه، كما استخدمه التجريبيون الإنجليز .

ه- **المــنهج الــنقدي " الترانسندنتلي " :** قال به " كانت " ويهتم بتحليل شروط قيان المعرفة وحدودها .

و- **المــنهج الجدلي :** ويتأسس على التسليم بفكرة، ثم التسليم بنقيضها، والتسليم ثالثاً بالمركب بينهما، وقد أقام هذا المنهج أصحاب المنهج الهيجلي والقائلين بالجدلية الجدلية .

ز- **المذهــب الحدســي :** قال به " برجسون " وينادي بالإدراك المباشر للواقع عندما يمتزج الشعور بعملية التغير والصيرورة إمتزاجاً تاماً .

ح- **مــنهج التدبر والاستبطان الميتافيزيقي :** ويهدف إلى إنماء الحقائق والقيم الكامنة بالإنسان، حتى تصل به إلى الله .

---

[1] - د.محمد محمد قاسم : م.س . ص: 57 .

ط- منهج الإصطفاء : وهو منهج نقدي تاريخي، ويعني بالانتخاب المقصود والفعال، قال به " شيشرون " و " سواريز " و " كوزان " .

ي- المنهج الوضعي : كما هو عند " كونت " و " سبنسر " والتجريبيين المناطقة، ويحاول أن يطبق الإجراءات الدقيقة للعلوم الوضعية على الفلسفة .

2- المنهج البديهي (الاستنباطي) : The Axiomatic Mathod : ويستخدم في العلوم النظرية والرياضيات من بينها على وجه الخصوص، ويستند الاستنباط إلى مجموعة من الحدود الأولية والتعريفات والبديهيات والمصادرات، وينتقل منها – في إطار مجموعة من قواعد الاشتقاق الصارمة – إلى ما يترتب عنا من نتائج أو نظريات .

تتعلق التعريفات بتصورات خاصة بكل عالم، ففي الهندسة نعني بتحديد معاني حدود كالنقطة والخط، وفي علم الحساب نعني بتحديد معاني كالعدد الصحيح والإضافة والنقصان ... الخ أما البديهيات فهي قضايا واضحة بذاتها لا يبرهن عليها، ولها خواص ثلاث : الوضوح النفسي، الأولية المنطقية الصورية . أما المصادرات فإننا نسلم بها رغم أنها ليست واضحة وضوح البديهيات وإن كنا نستنتج منها نتائج دون الوقوع في تناقض . تشكل مجموعة التصورات السابقة النسق الاستنباطي الذي إن اتسم بضرورة تربط بين مقدماته ونتائجه، إلا أنه لا يتسم بالعمومية، حيث لا يتحتم على العلم (الرياضيات مثلاً) أن يكون له نسق استنباطي بذاته لا يتغير، بل يمكن أن تتعدد الأنساق داخل العلم الواحد تعدد مجموعة الافتراضات الأولية التي ينطلق منها، ولابد للنسق في هذه الحالة أن تتوفر فيه شروط منها : استقلال مقدماته وبساطتها . بالإضافة إلى كفاية عناصره المكونة للبرهنة على قضايا العلم موضوع البحث، وعدم انطوائه على تناقض داخلي .

3- المنهج الاستقرائي The Inductive Method : هو منهج البحث في العلوم التجريبية كالطبيعة والكيمياء والأحياء، كما تستخدمه بعض العلوم الإنسانية كالتاريخ والنفس والاجتماع . يهدف إلى الكشف عن اطراد الظواهر وانطوائها تحت قوانين بعينها. ويستلزم هذا المنهج تطبيقاً دقيقاً واعياً لمجموعة من الخطوات والإجراءات يمكن تصنيفها في ثلاث مراحل هي مرحلة الملاحظة والتجربة ومرحلة تكوين الفروض العلمية ومرحلة تحقيقها . أما الإجراءات فهي :

1- الملاحظة وأدواتها المختلفة وتصنيف المشاهدات في ضوء التحليل والمقارنة .

2- ثم اختيار الوقائع المتشابهة. وضع فروق تدور حول تعيين العلة أو القانون .

3- التحقق باستخدام القواعد التجريبية .

4- الاستنباط وما يتعلق به من برهان وتفسير .

5- ترتيب النتائج .

6- صيغة القانون العلمي أو تكوين النظرية المناسبة في قضية .

وتنطوي هذه المراحل والخطوات الاستقرائية على الاعتقاد بمبادئ مثل مبدأ اطراد الحوادث في الطبيعة ومبدأ العلية، ويمكن أن تخضع لتقويم فلسفة العلم ومناقشتها، كما تخضع لنفس التقويم أدوات منهجية أخرى مثل الملاحظة طبيعتها وتأثرها بالنظريات السابقة التي يعتقد بها الباحث، الفروض وشروط تكوينها بصورة علمية، مشكلة الاستقراء والحلول المتاحة كلها، كما أن موقف العلماء المعاصرين من مراحل الاستقراء، وأهميته كمنهج، يكشف إلى حد بعيد مدى ما يمكن أن تسهم به فلسفة العلم في تطوير المنهج .

4- **المنهج الوصفي The Descriptive Method** : وتستخدمه العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، ويعتمد على الملاحظة بأنواعها بالإضافة إلى عمليات التصنيف والإحصاء مع بيان وتفسير تلك العمليات . ويعدّ المنهج الوصفي أكثر مناهج البحث ملاءمة للواقع الاجتماعي كسبيل لفهم ظواهره واستخلاص سماته . ويأتي على مرحلتين[1]. الأولى مرحلة الاستكشاف والصياغة التي تحتوي بدورها على ثلاث خطوات هي تلخيص تراث العلوم الاجتماعية فيما يتعلق بموضوع البحث، والاستناد إلى ذوي الخبرة العلمية والعملية بموضوع الدراسة، ثم تحليل بعض الحالات التي تزيد من استبصارنا بالمشكلة وتلقي الضوء عليها أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التشخيص والوصف وذلك بتحليل البيانات والمعلومات التي تم جمعها تحليلاً يؤدي إلى اكتشاف العلاقة بين المتغيرات وتقديم تفسير ملائم لها .

5- **المنهج التاريخي The Historical Method** : هو منهج تعول عليه العلوم التي تدرس الماضي بسجلاته ووثائقه ويعتمد هذا المنهج على الجمع والانتقاء والتصنيف وتأويل الوقائع . ومن ثم كان العمل الأول للمؤرخ هو الاهتداء إلى الواقعة التي اختفت في الماضي والتثبت منها، إذ أنها نقطة البدء في المنهج التاريخي نتعقبها في الوثيقة .

---

[1] - د. محمد علي محمد : **علم الاجتماع والمنهج العلمي**، ص:186 .

وتـناول الوثـائق بالدراســة والتحلـيل عمــل نقــدي بالدرجة الأولى، وللنقد التاريخي مرحلتان [1] :

1- التثبيت من صحة الوثيقة والاستعانة بمجموعة من العلوم المساعدة .

2- التثبيت من الواقعة في إطار نقد وثائق لا إرادية تدور حولها .

أمــا العمــل الثانــي للمؤرخ فهو عملية التركيب التاريخي حين ندمج الوقائع في مجموع حضاري شامل يدور في نفس الوقت في سياق زمني واحد .

وهنا يثير التأريخ والعمل بالمنهج التاريخي نقاشاً حول بعض التصورات التي تهتم بها فلسفة العالم مثل : فكرة اتصال التاريخ، منطق التاريخ، الفهم والتفسير لما بين الوقائع من وجوه للشبه أو الاختلاف، السبب والنتيجة، الحتمية التاريخية، مدى تحقق الموضوعية في دراسة التاريخ، وضعية التاريخ .

6- المــنهج النفســي The Psychological Method : وتســتخدمه كل العلوم التي تجعــل مــن السلوك الإنساني وتطوره موضوعاً لها. ولا يعتمد المنهج هنا على التحليل الاســتبطاني وحــده وإنمــا يستند إلى إجراء التجارب[2] . ودراسات علم النفس وفروعه تــندرج تحت ما يسمى بعلم النفس التجريبي الذي أدخل مناهج الملاحظة المدعمة بالآلات العلمــية كمــا تمارســها العلوم الطبيعية . كما تكتمل صورة المنهج النفسي بالإشارة إلى المــنهج المقــارن- بالإضافة إلى المنهج التجريبي – الذي يقوم بمقارنات، إما بين نماذج مختلفة من الأفراد، أو بين أفراد ينتمون إلى مجتمعات أو حضارات متباينة[3] .

وتمــيل المــناهج النفســية إلــى تقصــي الأســباب التــي تقف وراء الظواهر النفسية، وتسلم بالحتمية حتى تصبح مناهج علمية من الوجهة العملية، و إن كانت الحتمية لا تظهــر فــي الســلوك الإنســاني إلا إذا غلبــت علــيه الآلية وكنا نقيس ظواهر ذات أساس فسيولوجي، أما الإنسان حر الإرادة المتحرر من الشروط الفسيولوجية والاجتماعية فإنــه لا يــنطوي تحــت مقولة الحتمية، وهنا تنشأ الحاجة لفلسفة العلوم لتناقش الحتمية، السببية، الحرية[4]... إلخ .

---

[1] - بول موى : المنطق وفلسفة العلوم، ص،ص : 256،257 .

[2] - محمد محمد قاسم : م.س، ص: 61، عزاه إلى : Runes , op. cit. , P. 197 .

[3] - بول موى: م.س. ص- ص: 252-254 . بتصرف

[4] - محمد محمد قاسم : م.س . ص: 63 .

4- في الفلسفة والمنهج : ما زال العلم محور حديثنا فلسفة ومنهاجاً، و إذا كنا نسلم بداية أن الفلسفة ليس من حقها أن تزعم امتلاك ناصية الحق أو الحقيقة المطلقة، فإن علينا أن نؤكد أيضاً هذا القول على العلم والفلسفة بصفة عامة، ويمكن أن ينسحب أيضاً على أدوات ومناهج كل منهما . وإن اتخذنا " مناهج العلوم " أو " علم المناهج " مجالاً لتطبيق هذه المقولة، وجدنا أن هذا العلم يدرس المناهج وارتباطها بالعلوم المختلفة من جهة، كما يدرس السبل التي يسلكها العلماء بهدف الاقتراب من اليقين في ميدان تخصصهم، وقد زعم العلماء أن علم المناهج قد تكون على أيديهم داخل المعامل، بحجة أنهم لم يدخلوا إلى معاملهم مزودين بقواعد عامة يؤدي اتباعها إلى الكشف عن الحقائق، وإنما كان محك ذلك هو الاتصال بالوقائع وممارسة التجارب المعملية . ويضيفون إلى حجتهم السابقة القول بأنه ينبغي على العلم في مرحلة تكوينه ألا يسبقه مذهب فلسفي يخضع له العالم في إجراء بحوثه وبناء على ما تقدم رأى أغلب العلماء أنه ليس للمنطقي أن يفرض قواعد بعينها على العالم المتخصص.

وينبئنا الواقع العلمي بما يخالف هذا الزعم، حيث أن العالم المتخصص في نطاق محدود لا يستطيع أن يتبين العلاقات والروابط التي تنشأ بين النطاقات المختلفة للعلم وما ينشأ من تشابك بين المناهج المختلفة وتداخلها عند دراسة موضوع واحد . وهنا يبرز دور عالم المنطق عندما يحاول أن يضع صورة عامة للمناهج التي يتبعها العقل الإنساني عند بحثه عن الحقيقة العلمية[1] . فهو وحده القادر على الإلمام بمختلف ميادين العلم في نظرة واحدة شاملة تهيئ له أن يدرك الملامح العامة والخصائص الكلية المشتركة بين مناهج المتبعة في فروع العلم المتعددة[2] .

وفي رأينا أن الأقرب إلى الصواب فيما يتعلق بنشأة علم المناهج وتطوره، أن الأمر يبدأ عندما يقدم لنا العالم المتخصص تقريراً مفصلاً عن الخطوات التي اجتازها عند إعداده بحثاً في نطاق تخصصه . ثم يأتي عالم يتسم بسعة في الأفق وشمول في المعلومات ليحاول أن يحدد لنا الإطار المنهجي الذي اتبعه الباحث المتخصص، وموضع هذا الإطار من المناهج المعروفة . ويأتي دور عالم المنطق في نهاية الأمر ليصنف المناهج المتاحة أمامه، بحثاً عن العلاقة بينها والخصائص العقلية للأنساق، مع صياغة

---

[1] - د. محمد محمد قاسم : م.س . ص، ص : 92 - 93 .
[2] - د. عبد الرحمن بدوي : مناهج البحث العلمي، ص: 10 .

النـــتائج العلمـــية التي سبق أن توصل إليها العلماء في إطار مذهبي للبحث عن الحقيقة . ومعـــنى ذلك أن الفلاسفة بصفة عامة والمناطقة بوجه خاص لا ينتقدون الإجراءات التي قـــام بها العلماء بصدد الكشف عن قوانين ونظريات، فتلك حلبة العلماء دون منازع، وإنما يتناولون المناهج التي التزم بها العلماء والتصورات والمصادرات في مسيرتهم نحو كشف العلاقة بين الوقائع والقوانين والنظريات . إن المنطقي يصوغ قواعد ويقدم توجيهات عامة يدور معظمها حول شروط سلامة الاستنتاج للاهتداء بها أثناء البحث العلمي .

أمـــا الـــدور الأهـــم لفيلســـوف العلم أو لعالم المناهج أو للمنطقي، فهو أن يناقش الفـــروض التـــي تقـــوم علـــيها العلـــوم المختلفة ويوازن بينها ويضعها موضع الفحص والاختـــبار، مســـتنداً في ذلك إلى إلمام كافٍ بالعلوم التي يوازن بينها، وقدرة كافية على تحلـــيل ما تثيره هذه العلوم من إشكالات ومحاولة وضع حلول لها[1] . ويكشف " د.عبد الغفـــار مكـــاوي " عن أهمية تدخل فيلسوف العلم بقوله : " ... ذلك أن مشكلات الأسس والمســـلمات والفـــروض التي تعتمد عليها هذه العلوم والمناهج التي تسير عليها، لا يمكن معالجـــتها بهذه المناهج نفسها، وإلا وقعنا في الدور : فمشكلة تطبيق منهج معين لا يمكن مناقشتها عن طريق هذا المنهج بنفسه . إذ يستحيل مثلاً أن نبرهن على خلو نسق منطقي ورياضي من التناقض بوسائل هذا النسق نفسه .. كما يستحيل بغير نظرية فلسفية أن نميز مناهج المستويات اللغوية المختلفة في علم الدلالات والمعاني (السيما نطيقا)، كأن نطبق المـــنهج علـــى موضوعات علمية ثم نطبقه على المناهج نفسها في مستوى أعلى . وهذا يؤكـــد ما سبق قوله من أن العلماء لا يمكنهم في مسائل الأسس والمناهج أن يستغنوا عن النقد الفلسفي "[2] .

وحقـــيقة الأمر أن لا غنى للعلماء عن الفلاسفة، ولا غنى للفلاسفة عن العلماء، وقد بـــرزت هـــذه الحقيقة مع نشأة جيل من العلماء وفلاسفة العلم المعاصرين يجمع بين خبرة العلماء ومنطق الفلاسفة ومنهم : " أنشتين " و " رسل " و " كارل بوبر " وغيرهم.

أمـــا الصورة العامة لمنهج العلم فلم تعد تتسم بالاستقرار أو الثبات كما كان يعتقد . ذلـــك لأن المعـــرفة العلمـــية نامية بطبيعتها ومتطورة، ومن ثم فإن أدوات تحصيل هذه المعرفة من أدوات ومناهج يطرأ عليها تحسين وتعديل بين حين وآخر. وننقل رأي " هانز

---

[1] - د. محمد محمد قاسم : م.س . ص، ص : 63-64 .
[2] - د. عبد الغفار مكاوي : لِمَ الفلسفة ؟ ص: 103 .

ريشينباخ " في كتابه نشأة الفلسفة العلمية عن عبد الغفار مكاوي، حيث يقول موضحاً هذه النقطة الهامة . " والواقع، صورة المنهج العلمي كما ترسمها الفلسفة العلمية الحديثة مختلفة كل الاختلاف عن المفاهيم التقليدية " العقلية والمثالية " فقد اختفى المثل الأعلى لعالم يخضع مساره لقواعد دقيقة، أو لكون متحدد مقدماً، يدور كما تدور الساعة المضبوطة، واختفى المثل الأعلى للعالم الذي يعرف الحقيقة المطلقة، واتضح أن أحداث الطبيعة أشبه برمي الزهر منها بدوران النجوم في أفلاكها . فهي خاضعة للقوانين الاحتمالية، لا للعلية، أما العالِمْ فهو أشبه بالمقامر منه بالنبي . فهو لا يستطيع أن ينبئك إلا بأفضل ترجيحاته، ولكنه لا يعرف مقدماً أبداً إن كانت هذه الترجيحات ستتحقق . ولكنه مع ذلك أفضل من ذلك الذي يجلس أمام المائدة الخضراء، لأن مناهجه الإحصائية أفضل، والهدف الذي يسعى إليه أسمى بكثير، وهو التنبؤ برميات الزهر الكونية . فإذا ما سئل عن أسباب إتباعه لمناهجه، وعن الأساس الذي يبني تنبؤاته عليه، لا يكن في وسعه أن يجيب بأن لديه معرفة بالمستقبل تتصف باليقين المطلق، بل أنه يستطيع فقط أن يقدم أفضل ترجيحاته . ولكن في وسعه أن يثبت أن هذه بالفعل هي أفضل الترجيحات، وأن القول بها أفضل ما يمكن عمله . و إذا كان المرء يعمل أفضل ما يمكن عمله، فهل يستطيع أحد أن يطلب منه المزيد ؟ " .

رغم أن للفلسفة هذا التأثير المباشر في تطور ونمو المعرفة العلمية إلا أن هناك من ينظر إلى الحقيقة العلمية مستقلة عن الحقيقة الفلسفية وهناك من يجعل إحداهما أساس عمل الثانية، وهناك ثالثاً من يزاوج بين الحقيقتين بوصفهم نتاجاً طبيعياً لعقل الإنسان، فلنستعرض هذه الاتجاهات .

5- بين المنهجيَّة والمنهج

1- تعريف المنهجيَّة : المنهجية مصطلح محدث راج في الدراسات العليا خاصَّة بمعنى العلْم الذي يُبيِّن كيف يجب أن يقوم الباحث ببحثه، أو هي الطريقة التي يجب أن يسلكها الباحث منذ عزمه على البحث وتحديد موضوع بحثه حتى الانتهاء منه، أو لنقُلْ هي مجموعة الإرشادات والوسائل والتقنيَّات التي تساعده في بحثه .

والغرض من المنهجيَّة تعليم الطالب البحث العلمي وتنمية الروح العلميَّة فيه، وتسهيل مهمته في البحث، وتجنيبه ضياع أتعابه هدراً وموضوعها معايير البحث

والباحث، واختيار الأستاذ المشرف، والتقميش، وكيفيّة كتابة البحث، والتحشية (كتابة الحواشي)، ووضع الفهارس[1] ... الخ .

2- **تعريف المنهج** : جاء في " لسان العرب " : " طريق نَهْجٌ : بَيّن واضح ... ومَنْهَج الطريق وضحه، والمنهاج كالمنهج، وفي التنزيل : " **لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً** "[2] .

والمنهاج : الطريق الواضح . والنهج : الطريق المستقيم[3] . ونميل إلى التمييز بين " المنهج " و " المنهجية " استناداً إلى الاعتبارات التالية :

1- إن " المناهج " وصف لأعمال العلماء المتقدمين وطرائق بحوثهم وأساليبهم ومصطلحاتهم، فالعلوم والبحث العلمي سابقة للمناهج، أمّا المنهجيّة فمجموعة معايير وتقنيّات ووسائل يجب إتباعها قبل البحث وفي أثنائه .

2- إنّ المنهجية، كالمنهج، وصفيّة لأنها تُبين كيف يقوم الباحثون بأبحاثهم لكنها تختلف عنه في أنها معيارية في الوقت نفسه، لأنها تقدم للباحث مجموعة الوسائل والتقنيات الواجب اتباعها .

3- إن مناهج الدراسة تختلف من علم إلى آخر، فللأدب مناهجه، وكذلك للغة، وللتاريخ، والبيولوجيا، والرياضيات ... أمّا المنهجية فواحدة عموماً .

4- إن المناهج تُطرح عادةً للنقد والتقويم، فيُفَضّل ما لها وما عليها، وأيها الأولى بالإتباع، وما المنهج المناسب لهذا النوع من الدراسات .. أما المنهجية، فمعايير وتقنيات يجب التزامها لتوفير الجهد، وعدم إضاعة الوقت، وتسديد الخطى على الطريق العلمي الصحيح .

5- إن المناهج مرتبطة بالمنطق وطرق الاستدلال والاستنتاج، ولذلك فهي تتطور وتتعدل من حين إلى آخر، أما المنهجية فأُضْحَت، عموماً، جملة قواعد ثابتة[4].

ولمزيد من التوضيح حول هذه الفروقات بين " المنهجيّة " و " المناهج " نعرض فيما يلي مناهج البحث في اللغة والأدب، ليقارنها القارئ مع محتويات كتابنا هذا، أي مع ما تشمله مادة " المنهجيّة " .

---

1 - يعقوب، إميل : كيف تكتب بحثا . ص، ص : 9، 10 .
2 - سورة المائدة : 48 .
3 - ابن منظور : لسان العرب . مادة : (ن هـ ج) .
4 - إميل يعقوب : م.س . ص،ص: 10-11 .

3- **مـــناهج البحث في اللغة والأدب** : إن أهم مناهج البحث في اللغة المنهجان : الوصفي التقريري، والمعياري التقليدي .

أ- **المـــنهج الوصـــفي الـــتقريري** : يعتبر هذا المنهج الأكثر أهمية وموضوعية، والأكثر جذباً للانتباه والدراسة في العصر الحديث . وجاءت تسميته ردّة فعلٍ على المنهج التاريخـــي التعليلي المعياري القديم، وقد تطوّر تطوراً سريعاً في السنوات الأخيرة . وهو ينطلق من الملاحظات إلى الفرضيات على النحو التالي :

1- ملاحظة الأحداث والمعطيات اللغوية .

2- صياغة بعض التعليمات للأحداث المتشابهة .

3- صياغة افتراضات تُفسر هذه الأحداث على ضوء التعليمات السابقة .

4- التأكد من ملاءمة هذه الافتراضات للواقع اللغوي .

5- بناء نظرية قائمة على هذه الافتراضات .

6- اعتماد النظرية السابقة لوصف قضايا اللغة وتفسيرها .

أما الخصائص التي اتَّسم بها، فأهمّها ما يلي :

1- اعتماد معايير واحدة في تحليل التنظيم اللغوي .

2- اعـــتماد القواعـــد الأكثر وضوحاً وتبسيطاً في تبيان عناصر اللغة، ووصفها، وتفسيرها .

3- شمول المستويات اللغوية (الصوتيّة، والصرفيّة، والتركيبيّة، والدلاليّة) كافة، واستنفاد القضايا اللغوية بالبحث .

4- اعـــتماد الموضـــوعية للتحقق من الافتراضات اللغوية . لذلك لا يتبنى المنهج الوصفي هذه الافتراضات، إلا بعد إخضاعها للتجربة والتدقيق.

5- تـــناول اللغـــة علـــى أنهـــا موضوع من موضوعات الوصف، كالتشريح، لا مجموعـــة من القواعد كالقانون . فالباحث في تشريح الجسم الإنساني لا يقول : يجب أن يكون العظم الفلاني بهذا الموضع، أو يجب أن يكون العضو الفلاني بهذا الحجم أو الوزن أو الصـــورة، إنمـــا يشرح شرحاً وصفياً موضوعياً ما يقع تحت نظره، فعلى الباحث في اللغـــة أن يذكـــر خصائصها دون أن يدَّعي أن هذا القول جائز، وذاك لا يجوز، لأن همه وصف الحقائق لا فرض القواعد .

6- اختيار مرحلة بعينها لوصفها وصفاً استقرائياً، واتخاذ النواحي المشتركة بين المفردات الداخلة في هذا الاستقراء، وتسميتها قواعد . فالقاعدة، في الدراسة الوصفية، ليست معياراً، وإنما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعلية .

ب- **المنهج المعياري التقليدي** : ساد هذا المنهج الدراسات اللغوية القديمة - وبخاصة في اللغة العربية - منذ نشأته في اليونان، على أيام أرسطو، حتى أواخر القرن الماضي . وكانت بداية الدراسة، عند نحاتنا العرب القدماء، محاولة جِدِّيّة لإنشاء منهج وصفي لدراسة اللغة، يقوم على جمعها وروايتها، ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها للخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم . ولكن منهجهم سرعان ما تحول إلى منهج معياري صارخ، وتظهر هذه المعيارية الصارخة في النواحي التالية :

1- إنَّ النحاة، بعد أن استقرأوا اللغة استقراءً ناقصاً، واستنبطوا بعض القواعد النحوية، عمدوا إلى فرض هذه القواعد على اللغة، بدل أن يخضعوها هي نفسها للغة . فأخضعوا الصواب والخطأ، في الاستعمال، لمجموعة من القواعد فرضوها على اللغة .

وكانوا، كلما دهمتهم الأمثلة التي تعارضهم، لجأوا إلى تأويلها أو وصفها بأنها شاذة أو نادرة، أم أن صاحبها قد أخطأ، وهكذا كانوا يذكرون القاعدة، ثم يتبعونها بأمثلة خارجة عليها، متناولين إياها بالتأويل النافر والتمحل البعيد، كي تستقيم مع قواعدهم، فإن أعياهم التأويل والتمحّل، حكموا بالقلة أو الشذوذ أو الخطأ . والغريب العجيب أن القرآن الكريم نفسه لم يسلم من تمحّلات النحويين وتأويلاتهم وتخريجاتهم، مع إجماعهم على أنه أفصح كلام عربي على الإطلاق، وأنه في ذروة البلاغة[1] .

وغني عن البيان، أن المنهج الوصفي، لا يتبنى الافتراضات أو القواعد، إلا بعد إخضاعها للتجربة والتدقيق، وأن هم الباحث فيه، أن يشرح ما يقع تحت نظره وصفياً موضوعياً، دون أن يدعي أن هذا القول جائز وذاك لا يجوز، لأن همه وصف اللغة لا فرض القواعد، وعندنا أن القول بالجائز والخطأ والصواب، أمر ضروري في التعليم، فلولاه تفسد اللغة، ولكن يجب أولاً استقراء اللغة استقراءً كاملاً، ثم إخضاع القواعد للغة، لا العكس . وذلك بغية التثبت من سلامة هذه القواعد .

---

[1] - اميل يعقوب : م.س، ص.ص : 11- 14 . بتصرف .

2- إن النحاة العرب، و إن كانوا قد شملوا بدراساتهم مستويات اللغة كافة (الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والدلاليّة)، قد خلطوا هذه المستويات خلطاً شديداً، كما نرى في المؤلفات النحوية الباكرة والمتأخرة على حد سواء . أما المنهج الوصفي، فيدرس هذه المستويات كلاً على حدة[1] .

3- عمد النحاة العرب إلى لهجات متعددة، فخلطوا بينها محاولين إيجاد نحوٍ عام لها جميعاً. والمنهج الوصفي يدرس كل لهجة على حدة . ثم يقعّدها من ناحية الصوت والصرف والنحو والدلالة .

4- إن المفكرين العرب افتتنوا بالمنطق الأرسطي، إذ اعتبروه سمة الثقافة، وراحوا يطبّقونه على علومهم، وبخاصة على علم النحو، حتى أصبح كلامهم في النحو أقرب إلى الفلسفة منه إلى النحو نفسه[2] .

هناك عدداً من مناهج البحث يمكن استخدامها وتجريبيها في البحث الأدبي، منها :

1- **المنهج التاريخي :** يقوم هذا المنهج على قسمة الأدب العربي إلى عصوره السبعة قسمةً متطابقة مع العصور السياسية . ولا شك أن بين الأدب والتاريخ صلات ووشائج متينة، وخاصة في الأدب العربي، لكن الأدب لا يخضع لتقلب الحكم المفاجئ، بل يتطلب زماناً طويلاً لتخمره وتغييره . وليس هناك سور حديدي بين أدب وأدب أو بين عصر وعصر . وهذا المنهج يهمل أثر الأدب في السياسة وأثر البيئة الجغرافية، والنوازع الفردية، والصفات النفسية في الأدب نفسه .

2- **منهج الفنون الأدبية :** يقوم على دراسة الأدب العربي دراسة تعتمد على تصنيف نتاجه في فنون أو أنواع أدبية، وعلى تتبع هذه الأنواع والفنون عبر الزمن لمعرفة تطورها وأثر العوامل الإقليمية فيها، أثر اللاحق بالسابق من الأدباء، والموازنة بين هؤلاء، وبين أساليبهم . لكن هذا المنهج يهمل صاحب النص الأدبي، مجتزئاً نتاجه إلى الفنون الأدبية المختلفة، كما يصعب تطبيقه على القصيدة العربية التي لم تعرف وحدة الموضوع بل وحدة البيت .

3- **منهج الجنس :** يدعو هذا المنهج إلى دراسة الأدب تبعاً لأجناس الأدباء . وهذا المنهج غير صالح لدراسة الأدب في المجتمع العربي القائم على خليط من الأجناس

---

[1] - م.س.ن، ص : 14 .
[2] - م.س.ن، ص: 27 .

المختلفة . ومن التعسُّف تصنيف أدباء العربية حسب جنسِهم (عَرَب، فُرس، روم ...)، نظراً لامتزاج الدماء، واختلاط الثقافات، والوحدة المادية والثقافية والعضوية التي خلقها الإسلام في المجتمع العربي .

4 – المنهج الثقافي : يدرس الأدب تبعاً للثقافة التي غلبت على الأدباء، فيدرس أدب الثقافة الفارسية، وأدب الذين اغتنوا منها، وأدب الثقافة العربية وأدب الذين تغذوا بها، وأدب الثقافة اليونانية وأدب الذين تمثلوا هذه الثقافة، وذلك كلٌّ على حدة . وقد انتُقِد هذا المنهج في أنه يهتم بالعناصر العقلية في الأدب دون عناصره العاطفية، كما أنه يُهمل العنصر الفردي والناحية النفسية . وليست الثقافة وحدها هي التي تصوغ الأدب .

5– المنهج الفني : يدرس هذا المنهج الخصائص الفنية المشتركة بين الأدباء، مُنتقلاً من النطاق الفردي إلى النطاق العام، جامعاً بين الأدب والنقد من جهة، وبين الأدب والعلم من جهة أخرى، ومُصنفاً الأدباء حسب خصائصهم الفنية، لا حسب التطور الزماني أو غيره، إلى مدارس واتجاهات تتميز كل منها بجملة خصائص فنية .

6– المنهج الإقليمي : يدرس الأدب لا حسب الأنواع الأدبية، أو الأجناس، أو الثقافات، أو الخصائص الفنية، بل موزعاً بين الأقاليم، فيدرس الأدب العربي مثلاً في مصر، ثم في الشام، ثم في المغرب ... ولاشك في أثر البيئة الجغرافية في الأدب والأديب معاً، لكن هذا المنهج يهمل العناصر النفسية والذاتية والثقافية وغيرها من العوامل التي تؤثر تأثيراً فعالاً في نشأة الأدب ونمائه .

7 – المنهج الطبيعي : يُنكر هذا المذهب التذوق الشخصي، وكل ما يتّصل بالذوق وأحكامه ويطبق على الأدباء جميعاً قوانين واحدة، وذلك كما تطبق قوانين الطبيعة على كل العناصر، وكل الجزئيات، وكل الكائنات، مسقطاً كل ما يمتاز به الأدباء من فردية ذاتية، محاولاً جعلهم كأنهم أشياء بيولوجية، مقسّماً إياهم في فصائل تتشكل بحسب ما يقع عليها من مؤثرات خارجية (الجنس، البيئة، الزمان ...)، كما تتشكل فصائل الحيوان والنبات في الطبيعة .

8 – المنهج الاجتماعي : يصل هذا المنهج بين دراسة الأدب والدراسات الاجتماعية، إذ إنّ الأدب، في حقيقته، تعبير عن المجتمع، ولا يوجد أدب دون مجتمع ينبثق منه، كما يدرس الظواهر الاجتماعية في البيئة التي ينتمي إليها الأديب، وطبقته الاجتماعية، وما

عـــاش فيه من أوضاع اقتصادية . وقد أدى هذا المنهج إلى ظهور مقياس اجتماعي جديد هو مقياس الالتزام في الأدب، الذي يُقيِّم الأدب بمقدار التزامه قضايا المجتمع ودفاعه عن الحق بكل أشكاله . ومع القول بـــ " الالتزام " نشأ مذهب " الفن للفن " الذي يرى أن غاية الفـــن عامَّـــةً والأدب خاصَّةً هي ذاته، بغض النظر عما يطرحه من مسائل اجتماعية أو أخلاقية أو نحوها .

9 – المـــنهج النفســـي : نشأ هذا المنهج مع (سيغموند فرويد) (1856–1939)، ونما على يد تلامذته ومع تطور علم النفس، حتى أصبحت دراسة الأدب والفن على ضوء علم الـــنفس مـــنهجاً رائجـــاً لدى الباحثين الغربيين، ثم ظهر ظهوراً لافتاً للنظر في السنوات الأخيرة في دراسة الأدب العربي . وأهم ما قال به هذا المنهج أن الفن إنما هو تنفيس عن عُقد جنسية أو كبت جنسي، وإنه في دراسة الأدب من دراسة " اللاشعور " الذي منه ينبع الصنيع الفني.

10 – المـــنهج الجمالي : يبحث في إدراكنا الجمال ومقاييسه وأحكامنا عليه، والعلل التي تثـــير فيـــنا الشـــعور بالجمال عند هذا الأديب أو ذاك، وطبيعة الإبداع الأدبي، ومصدر الجمـــال فـــي هذا الإبداع، وحقيقته، معاييره، وقيمه، وصلته بمنشئه وبالمجتمع، وبالواقع، وبالمثال المطلق...

11 – المـــنهج الذاتـــي الموضوعي : يدعو هذا المنهج، إلى تذوق الآثار الأدبية، ثم إلى تصوير ووصف إحساسنا وانفعالنا بها، ومدى تأثيرها في قلوبنا وعقولنا . وهكذا تستحيل دراســـة الـــتاريخ الأدبي والآثار الأدبية دراسةً ذاتية تأثُّريَّة تعتمد على التذوق الشخصي، دون الدخول في دراسة أحوال المجتمع، أو الوقوف عند شخصية الأديب، أو إقحام بحوث علـــوم الطبيعة، أو علم الاجتماع، أو علم النفس، أو الفلسفة الجمالية . فالمهم تحليل النص تحليلاً لغوياً ونحوياً وبلاغياً قائماً على التذوق الشخصي[1] .

---

[1] - م.س.ن. ص – ص : 29- 32، بتصرف .